الفصل السادس والعشرون

تخليص وطن ماكيافيلي من يد الأجانب البرابرة

بعد أن نظرت في كل تلك المسائل أقول: إني أفكر فيما إذا لم يكن قد آن الأوان لأمير جديد حذر يدخل نظامًا جديدًا يشرفه وينفع عامة الشعب، ويظهر لي أن الفرصة سانحة، وهذا لاجتماع الأحوال المناسبة مما لم يسبق له مثيل في تاريخنا.

فإذا كان من الضروري لإظهار قوة موسى أسر بني إسرائيل في مصر، ولإظهار عزم «قورش» إذلال «منيديس» للفرس، ولإظهار علو همة «تيصص» تفريق شمل أهل «أثينا» كذلك في هذا الزمان لأجل ظهور نور عبقرية أمير وطني قد اقتضت الحال وقوع بلادنا فيما هي فيه، وأن تكون في أسر أفظع من أسر بني إسرائيل، وتحت ضغط أشد من ضغط الفرس، ومشتتة أكثر من تشتت أبناء أثينا، بدون رئيس وبدون نظام، مقهورة مسلوبة مهانة، وقد قاست كل أنواع الخراب، ولو أنه ظهر بعضهم بمظهر يدعو إلى الأمل كأنه مبعوث من عند الله لإنقاذها، إلا أنه عند ذروة مجده عاكسه الحظ وأوقع به، فبلادنا الآن تكاد تكون ميتة وهي تنتظر أميرًا ينقذ «بومبارديا» من الاغتصاب «وتوسكانيا» من الاعتداء والسلب، ويشفي إيطاليا كلها من أدوائها، ويضمد جراحها الدامية.

انظر إلى بلادنا وهي تدعو الله أن يرسل إليها من ينقذها مما فيه، انظر إليها وهي تتأهب للمسير خلف أي علم يرفع للدفاع عنها، وليس لها الآن أمل إلا أن تكون أسرتك الكريمة على رأسها لإنقاذها، فإن أسرتكم قد رفعها الحظ والقوة وحباها الله وخلفاؤه، ولن يكون هذا العمل عليك صعبًا إذا أعدت على ذهنك أسماء وأفعال من ذكرت من الأمراء، وإن كانت أعمال هؤلاء الرجال مدهشة؛ لأنهم كانوا نادرين إلا أنهم كانوا بشرًا، ولم تسنح لهم الفرص بأحسن من سنوحها لك، ولم يحابهم الله والحظ مثل محاباتهما إياك، ولم يكن العمل الذي أتموه بأدنى إلى الحق والعدل من العمل الذي ستتمه ولا أسهل، إن أمامك دعوة عادلة؛ لأن الحرب الضرورية عادلة، والجيوش تكون رحيمة إن لم يكن لنا أمل في أحد سواها، وها هي رغبة وطننا جميعه، وليس هناك أسهل من إنجاز الأعمال المحاطة بالرعية، ما دمت تتخذ الوسائل التي اتخذها الأمراء السابق عليهم الكلام، وعدا عن ذلك كله فقد رأينا عجائب أتمها الله، فقد شق البحر، وأرسل الغمام يُظل الرسل، وأنبع الماء من حجر، وأنزل المن وكل شيء كان سببًا في عظمة الإنسان؛ لذا ينبغي أن يتم ما بقي بواسطتك إذا اختارتك العناية لذلك.

إن الله لا يفعل كل شيء لئلا يحرمنا من حريتنا في العمل، ولأن يبقى لنا نصيب في المجد.

وليس من العجيب أنه لم يأتِ بطل ممن تكلمت عليهم بما أطلب منك الآن، وإن كان قد ظهر في الحروب والثورات أن القدرة الحربية لا

وجود لها، فما هذا إلا لأن الطرق القديمة كانت غير صالحة، ولم ينشأ أحد على اكتشاف طرق جديدة، فليس يشرف الرجل الحديث الظهور مثل القوانين والقواعد الجديدة التي يضعها، فإن هذه الأشياء إن كانت على أساس متين وفيها روح عظمة تجعله محترمًا ومحبوبًا، ومجال الإصلاح والتوسيع في البلاد واسع، إن في الصغار فضائل كبرى لا يخلو منها الكبار، وقد امتاز أهل وطننا بالذكاء والإقدام والحذق، فإذا جاء الحرب وأظهروا ضعفًا! فليس هذا إلا لضعف الزعماء والقواد وعدم كفايتهم؛ لأن الذين يعرفون لا يطيعون، وكل إنسان يدعي المعرفة، ولم يرفع أحد إلى الآن نفسه بالإقدام والحظ ليرغم الكل على التسليم له وطاعته؛ فنشأ من هذا أنه طول هذا الزمن، وفي جميع الحروب التي أقيمت في العقدين الغابرين كان الفشل حليف الجيوش الإيطالية المحضة، وتشهد بذلك «تارو» و«الإسكندرية» و«كابو» و«جنوا» و«فايلا» و«بولونيا» و«مستري» فإذا كانت أسرتكم الكريمة تريد أن تقتفي آثار هؤلاء الرجال الذين أنقذوا أوطانهم، فأول واجب عليكم هو الحصول على قوة حربية من أبناء وطنك؛ لأنك لن تجد آمن ولا أقدر منهم، وإن كان كل فرد منهم صالحًا، فإنهم إذا اجتمعوا يتفوقون إذا رأوا في مقدمتهم أميرًا مثلك يكرمهم ويعضدهم، فمن الضروري إذن إعداد قوة وطنية للتمكن بمساعدة الشجاعة الإيطالية من حماية وطنك من الأجانب، وإن كانوا يزعمون أن مشاة سويسرا وإسبانيا هم من أقدر الجنود وأشدهم بأسًا، إلا أن لكل منهم عيوبًا، فإذا جاء نوع ثالث فهو لا شك يغلبهم؛ لأن «الإسبان» لا يحتملون هجوم الخيالة، وجنود «سويسرا» يخافون المشاة الذين يقابلونهم

بثبات وشجاعة تماثلان ثباتهم وشجاعتهم، وإن كان مثل هذا لم يتم إلى الآن إلا أنه حدث في موقعة «رافنا» ما يثبت ذلك تقريبًا عندما هاجمت المشاة الإسبان مشاة من الألمان يتبعون خطة أهل سويسرا في حروبهم، فإن الإسبان تمكنوا بخفتهم من اختراق صفوف الجرمان، وتضييق الخناق عليهم، دون أن يستطيع الجرمان الدفاع عن أنفسهم، وكادوا يفنونهم عن آخرهم لو لم تردهم الجنود الراكبة.

فإذا عرفنا عيوب النوعين أمكن إيجاد نوع ثالث تمكنه مقاومة الخيالة دون أن يرهب المشاة، وهذا لا يمكن بإيجاد جنود جديدة إنما بتغيير نظام الحرب، ومثل هذا الإصلاح إذا أدخل رفع قدر الأمير وأعلى شأنه، فلا تدعنَّ هذه الفرصة تفوت دون أن ترى بلادك محررها في شخصك، وإني عاجز عن وصف الحب الذي يلقاك به أهل الولايات التي أغار عليها الأجنبي! وبأي ظمأ للانتقام، وبأي ثقة وبأي شكر! بل أي باب يكون مقفولًا في وجهك! وأي شعب يأبى أن يطيعك! وأي حسود يقاومك! وأي وطني يتمرد عليك! فإن هذه السيادة الأجنبية تلذع خياشيم كل واحد منا، فهل لبيتك العظيم أن يأخذ على كاهله القيام بهذا العمل الجليل بالشجاعة والآمال اللذين توحيهما الدعوة العادلة لنصرة الحق والوطن، فتنهض بلاد آبائنا تحت لوائكم، فيصدق فينا قول بترارك:

إن الفضيلة عدوة الجهالة، تحمل السلاح وتسرع لمحاربتها، فلا تطول الوقعة بينهما؛ لأن الهمة القديمة التي تحرك قلوبنا لا تزال حية. [1]

([1]) ننقل هنا أصل هذين البيتين ليزداد معناهما وضوحًا لما في كلمتي **Virtù** و**Furore** من القوة بلغتهما الأصلية:

Virtù contra'l furore

Prenderà l'arme, e fla'l combatter contro؛

Ché l'antico valore

Negl' Italici cuor non è ancor morto